ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ٦ —

وما كادت ظمياء تفوه بالعبارة الأخيرة حتى ابتدأت أوقن بأنى سأهتدى إلى سرّ ليلى . وقد عرفت أيضاً أنه لابدّ لى من التجمل والتوقر حتى يصل الحديث إلى مداه ، فقد قضيت دهرى وأنا أدرعن أهوج لا أكاد أسمع الحديث عن الحب حتى يفتضح وقارى أشنع افتضاح . ولن أنسى ما حييت تلك الخسارة الفادحة التى قضت بأن يطوى عنى إلى الأبد سر السيدة (ن) فقد كانت عرفت من صواحبها أن شفاءها عندى ، وجاءت الشقية إلى عيادتى بشارع المدابغ ، فلما فحصتها تبين أن العلة لهـا سبب مدفون ، وكنت بحمد الله ولا أزال من أقدر الأطباء على تفرس فى أوانه ، وقد استطاعت دور السينما أن تنظم علاقتها بالصحافة على وجه مرضى ، فلن تعجز عنه دار للنشر . وبذلك يستريح الكتاب ويطمئنون على حقوقهم ، ويثقون بسعة النشر ويوقنون من إمكان التعديل على ما يخرجون كما يفعل زملاؤهم فى الغرب

وفى هذه الحالة ينسى ما لا ينسى الآن : الطبع الجيد ، والحجم الموافق ، والريح المضمون ، ومع ذلك انتظام عمل الأديب وإتاحة الفسحة الكافية من الوقت للتفكير والكتابة والإتقان

هذه — فيما أعتقد — هى الوسيلة العملية ؛ فإن الأسواق موجودة ، والقراء يعدون بالآلاف فى كل قطر ، والصحافة أداة وافية : فالأمر لا ينقصه إلا التنظيم ؛ وهذا لا يكون إلا بالمـال الكافى ، فهاتوا لى المال ، ثم انظروا ماذا أصنع لكم يا إخوان ! ولا تخافوا أن أبدده . نعم . ستحدثنى نفسى بذلك وتحاول أن تحملنى عليه ، ولكنى سأقاومها ، وسأروض نفسى على هـذه المقاومة من اليوم ، فلا تخشوا شيئاً ، ولا تقلقوا على مالكم ، ومع ذلك فلأن أبدده أنا خير من أن تضيعوه أنتم . ومتى كنتم تحسنون الإنفاق ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

المحجب من سرائر النفوس ... انهدّت تلك السيدة على المقعد ، وبدأت أحاورها فى ماضيها لأعرف سرّ العلة ، فما كادت تقرأ السطر الأول من صحيفة ذلك الماضى حتى طار صوابى ، فوضعت يمناها على صدرى ، ولكن الشقية لم تمهلنى وأفلتت كالظبى المذعور . وبذلك طُوى عنى سرها إلى الأبد . وكانت تلك الحادثة سبباً فى انتقالى من شارع المدابغ إلى شارع فؤاد

وما أحسب ظمياء إلا صورة من السيدة (ن) وربما كانت أفظع وأعنف فهى عراقية ، والعراقيون تغلب عليهم سرعة الانفعال ؛ والمرأة العراقية فيما سمعت ورأيت لا تسكن إليك إلا إن ضمنت حسن الأدب وكرم العفاف ، وهى عندئذ لا تحتاج إلى من يستدرجها لمسول الأحاديث ، وإنما تنطلق كالبحر الثجاج ؛ فاذا ارتبت فى أدبك ... لا أدرى ما تصنع فإن الله رحمنى من أمثال هذه المواقف منذ قدمت العراق ، وهو عز شأنه قادر على أن يردّنى إلى وطنى مُشرق الجبين

وجملة القول أنى تجلدت وتماسكت ، فمضت ظمياء تتحدث ، ومضى المطر يقرع النوافذ كأنه عذول ، وبين القلب الخافق والسحاب الدافق صلات يعرفها من يؤمنون بوحدة الوجود

— ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم وقف قطار المرض ، فلم تنزل ليلى ولم ينزل الفتى ذو العينين الخضراوين . ودار القطار دورة ثانية قطعتها فى ذهول

— وأنت أيضاً تحبين يا ظمياء ؟

— ألست إنسانة ، يا سيدى الطبيب ؟

(وهنا رأيت من الحزم أن أعلن تزاهتى ، فأفهمتها أنى أنكر عليها هذه البدوات ، لأن الذى يهمنى هو الوقوف على سر ليلى ؛ وأشهد أنى لم أجد صعوبة فى اصطناع هذا النفاق ، فقد مرنت عليه بفضل ما ابتليت بالمنافقين الذين تقدموا وتأخرت . ويكفى ما مر بى من التجارب ، وأخشى أن تقنعنى الأيام بأن النفاق سيد الأخلاق)

— أنت يا مولاى طلبت أن أقص الحديث كما وقع

— كما وقع لليلى ، لا كما وقع لك يا ظمياء ، فأنت فى عافية وليلى هى المريضة ، والحكومة المصرية لم تكلفنى استقصاء أخبار المتيمين فى العراق ، وإنما كلفتنى مداواة ليلى المريضة فى العراق

— فهمت يا سيدى فهمت

— زين ، زين ، ثم ما ذا ؟

— ثم وقف القطار فتلاحظ العاشقان

— عاشقان ؟ وهل يتم العشق فى لحظة ؟ هل نحن فى السينما يا ظمياء ؟

— وقع التلاحظ بين ليلى وبين ذلك الفتى ، والتعبير بالعشق من عندى

— شىء جميل ! فى أية مدرسة تعلمت يا ظمياء ؟

— فى المدرسة التى تعلمت فيها ليلى ، وهى المدرسة التى أنشأها حكمت سليمان فى سنة ١٩١١ بعد إعلان الدستور العثماني ؛ وكان حكمت سليمان مدير المعارف فى بغداد ، وكان تعليم الفتاة فى تلك الأيام من المسائل التي يختلف حولها المسلمون ، فكانت ليلى أولى فتاة قُيِّد اسمها فى تلك المدرسة

(وهنا دونت فى مذكرتى أن ليلى قديمة العهد بالثورة على مأثور التقاليد ، وهذه نقطة مهمة سأعرضها على المؤتمر الطبى ، ولعلها تكون السبب فى كشف كثير من الأسرار ، فالثورة على التقاليد تحدث رجّة فى المخ والأعصاب ، كما حدثنا المسيو ديبويه وهو يحاضرنا بكلية الطب فى باريس ، وهو أستاذ فاضل كنت السبب فيما وقع بينه وبين زوجته من شقاق)

— وهل درتم بالقطار دورة ثالثة ؟

— لا ، يا سيدى ، فقد خشيت ليلى أن تفطن إليها العيون فنزلت ونزل الفتى ، ولكنه أقبل عليها يقول : هل أستطيع أن أرشد السيدة إلى محتويات المعرض ؛ فانى أراها غريبة بهذه البلاد ؟ ولكن ليلى لم تلتفت إليه ، وانصرفنا ساكتين . وعرف الفتى أن سهمه أخطأ فمضى كاسف البال

— وبعد ذلك ؟

— مضينا بعد ذلك إلى البيت الذى نزلنا فيه بشارع قصر النيل ، وكان الحديث على المائدة من أشهى ما يكون ، فقد كانت الجرائد نشرت حديثاً لرجل مشهور اسمه سعد زغلول ، وكانت ربة البيت تحبّ إمتاعنا بصور الجدل السياسى فى مصر ، فأحضرت نحو عشرين جريدة فيها الرفض والقبول لذلك الحديث ، ثم أحضرت صورة كاريكاتورية نشرت فى الكشكول لكاتب معمم اسمه عبد العزيز البشرى فيما أتذكر ، وصورة أخرى للشيخ بخيت وهو يعترض على دخول السيدات أروقة البرلمان ، كان الجو كله جو ضحك ، ولكن ليلى لم تبتسم . ولعلها لم تعرف كيف كان الطعام فى ذلك اليوم

— مسكينة ليلى !

— نعم ، ياسيدى ، مسكينة ، فقد قضت ليلة مؤرّقة ، ثم أزعجتنى من نومى قُبيل الفجر لأستعد للعودة إلى المعرض

— ورجعتما إلى المعرض ؟

— رجعنا ، رجعنا ، وركبنا القطار عشرين مرة

— عشرين مرة ؟ ولماذا ياحمقاء ؟

— لنرى الفتى ذا العينين الخضراوين !

— ورأيتماه ؟

— مارأيناه ، وإنما رأينا أنضر منه وأصبح ، رأينا فتياناً كاللؤلؤ المنثور هم الشاهد على أن مصر من الحقول التى تُنبت الجمال . وقد أمتعت عينى بمن رأيت ، ولكن ليلى ظلت صريعة الهم والبلبال

— مسكينة ليلى !

— هل تسمح لى أن ألطم ياسيدى ؟

— تلطمين ؟ إنك لبغدادية ظريفة ياظمياء . ما يهمنى أن تلطمى ، وإنما يهمنى أن أسمع بقية الحديث

— لم تكن ليلى تقول إنها ترجع إلى المعرض لتبحث عن ذلك الفتى ، وإنما كانت تدّعى أنها تحب الوقوف على سرّ تقدم الزراعة والصناعة فى الديار المصرية . وحملتها هذه الدعوى المزيفة على شراء عدة نماذج مما أنتجته حقول سملاى ، وهى النماذج التى عرضها السيد محمد محمود

— سمعت بمعروضات هذا السيد ياظمياء

— وكتبت ليلى مقالة فى وصف المعرض نشرتها فى جريدة « البلاغ »

— سبحان الله ! لقد قرأت تلك المقالة فى ذلك الحين وكنت أحسبها من إنشاء ليلى الصحيحة فى حلوان

— لا ، ياسيدى ، هى من إنشاء مولاتى ، شفاها الله !

— آمين ، ثم ماذا يا بلهاء ؟

— قلت إن ليلى كانت تتردد على المعرض بدعوى الاطلاع على أسباب تقدم مصر فى الزراعة والصناعة ، أما أنا فكنت أعرف ماذا تريد ، وقد استمرت هذه الدعوى أسبوعين ، ثم يئست ليلى مما تريد ، فلم تذهب إلى المعرض بعد ذلك

— وبهذا انتهت القصة ؟

— لا ياسيدى ، فقد زعمت ليلى أنها شبعت من المعرض ، وشبعت من الأخبار الحديثة فى القاهرة ، وصرحت بأنها تحب أن ترى القاهرة المعزّية ، علها ترى ما يذكرها بأحياء بغداد ؛ فصحبتنا ربة البيت إلى حى يسمى الغورية ، فدخلنا الحزاوى والفحامين ، وشهدنا حارة اسمها وكالة (أبو زيد) وفيها تجارة السيد (... ...) الذي يبيع أدوات السمنة للسيدات ، فوقفت ليلى عنده لحظة ، ثم انصرفت . وفى خان الخليلى رأينا سيدة ملفوفة كأنها من عقائل بغداد ، فحيتنا على غير معرفة ، فردّت ليلى التحية بلهفة واشتياق . وأحببت أن أعرف سر هذه الحماسة من ليلى ، فنظرت إلى تلك السيدة فرأيت عينيها خضراوين !

— أعوذ بالله !

— تستعيذ بالله ياسيدى من ذلك ؟

— نعم ، أستعيذ بالله من شر العيون الخضر ، فهى سبب بلاءى فى هذا الوجود . ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم عرضت تلك السيدة أن تصحبنا لزيارة معالم القاهرة وقالت إن زوجها أستاذ فى الأزهر وأنه ينتظرها عند المعلم حسين الجريسى . ونظرت فرأيت ليلى تمشى وهى نَشوى من الانشراح كأنها تلمح من وراء النيب أعلام الأمل المرموق

وما هى إلا لحظات حتى كنا فى حضرة شيخ جليل اسمه الشيخ دعّاس

— الشيخ دعّاس؟

— نعم ياسيدى ، الشيخ دعاس ، وهو الذى أنجب أحمد وابراهيم وجلبى وسيد ومحمود ، وهم زينة الرجال فى بلاد النيل

— رضى الله عنهم أجمعين ، ثم ماذا ؟

— ثم تعلل ذلك الشيخ بضيق الوقت ، ودعانا إلى تناول القهوة فى منزله ، فركبنا سيارته ومضينا إلى داره فى حىّ الزمالك . ولما دخلنا أبصرنا فتاة هى قيد العيون ، بل قيد القلوب ، اسمها درية ، فسألنا عنها فعرفنا أنها ابنة الشيخ دعاس ، وابنة السيدة نجلاء ، ونظرت ليلى إلى تلك الفتاة فلم تر عينيها خضراوين ، وإنما رأت عيونها عسلية ، وهو اللون الغالب على عيون المصريات ، وهو لون ينطق عن السحر الحرام والحلال

— اتق الأدب يا ظمياء ، فأنت فى حضرة طبيب !

— الطبيب يسمع كل شئ !

— أمنت وصدقت !

— ومضت درية تباغم أمها باللغة الفرنسية . فسألت عنها فقيل إنها تلميذة بمعهد الليسيه

(وهنا أجهدت ذاكرتى لأعرف من هى تلك التلميذة ، ثم تذكرت أننى لم أتصل بمعهد الليسيه إلا فى سنة ١٩٢٨ والحمد لله على ذلك ، فما يسرنى أن تكون تلميذاتى محوراً لأمثال هذه الأحاديث)

— نعم يا ظمياء

— وبدا لليلى أن تسأل عن السر فى اختلاف ألوان العيون ، فأجابت السيدة نجلاء بأن درية صورة لأبيها الشيخ دعاس ؛ أما ابنها فهو صورة أمه اللبنانية . فقالت ليلى : وهل اللبنانيون خضر العيون ؟ فأجابت السيدة : أنا لبنانية الموطن ، تركية الأصل . فقالت ليلى : ومعنى هذا أن لك ابناً أخضر العينين ؟ فقالت السيدة : نعم ، وهو المحروس عبد الحسيب ، وهو طالب بمدرسة البوليس ، وسيحضر بعد قليل

« للحديث بقايا »

زكى مبارك

إلى المشتركين في خارج مصر

يطلب كثير من قراء الرسالة والرواية من الطلاب فى خارج مصر أن يشتركوا فيهما بالقيمة التى يدفعها الطلاب والمعلمون الالزاميون فى داخل القطر ، ويفوتهم أن يضيفوا إلى ذلك فرق أجور البريد بين الداخل والخارج وهو عشرون قرشاً مصرياً للرسالة وخمسة عشر قرشاً للرواية فيكون الرقم الصحيح كما يأتى ٥٥ + ٣٥ = ٩٠

فترجو الادارة أن يراعوا ذلك حتى لاتضطر إلى إغفال طلباتهم

(الادارة)